

السيرة الذاتية في تراث العرب والمستعربين: دراسة تاريخية

إعداد

د. موسى حسين محمد البشير (أريكينوسولا)

+2348034287956

husainmusa31@gmail.com

مقدمة

فن السيرة الذاتية من المعارف الأدبية التي تعد الشق الثاني لشقي فن السيرة، وهو أدبي محض يغرق تاريخه في قديم بداية فن الكتابة بصفة عامة. وهذا المقال ينوي إبراز ما لهذا الفن الأدبي من أهمية وتاريخ لدى العرب والمستعربين ويحتوي بعد المقدمة على النقاط التالية:

- السيرة الذاتية في المعاجم اللغوية والاصطلاحية الأدبية
- السيرة الذاتية في التراث العربي القديم: (أهميتها، خصائصها، وأنواعها)
- تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث
- السيرة الذاتية في الأدب العربي في نيجيريا.
- الخاتمة

مفهوم السيرة الذاتية في المعاجم اللغوية والأدبية

السيرة لغة من مادة سَيرَ يقال: سار يسير سيرا ومسيرة ومسيارًا سائرًا مسير ولهذه اللفظة معان عديدة منها: مشى "يسيرُ الناس على الرصيف" وكذلك يقال: ساره وسار به جعله يسير. سار سيرة حسنة: سلك سلوكًا حسنًا سار السنة أو السيرة: سلكها، اتبعها سرعنتك: اختلف تغافل، وكذلك سار الكلام أو المثل: شاع وذاع. ووردت على زنة فعل: سَيرَ يُسَيرُ تسيرًا ويقال: سيره جعله يسير وفي ذلك قوله "يوم نسير الجبال" ووردت سَيرَ يسائر مسائرة، يقال: سايره: بمعنى سار معه وجاراه ومنها: أسارَ يُسَيرُ إسارة ويقال: أساره بمعنى جعله يسير كما وردت على وزن تَفَعَّل: تسَيرَ يتسير تسيرًا: بمعنى اقتدى بها يقال: تسيرَ

بسنةٍ أو سيرةٍ تعني سلوكها واقتدى بها، ووردت على وزن تفاعل التي تفيد المشاركة بمعنى سارا معاً^(١).

ولهذه الكلمة مصادر مختلفة وزنا ومعنى نورد صيغ بعضها في هذا الصعيد حسب

تنوعها:

إسارة مصدر أسار

تسيار مصدر سار

وتسييراً مصدر تسيّر

تسيير مصدر سيّر يقال: تسيير الأعمال بمعنى إدارتها وتوجيهها، تسيير ذاتي: بواسطة إدارة داخلية. سائر: اسم فاعل من سار "عادوا إلى بيوتهم سائرين على أقدامهم (المثل السائر: الجاري والشائع، سائر: سائر الأشخاص أو الأشياء: الباقي يقال: حضر الحُلُقَةُ وَالِدَاةُ وسائر أفراد عائلته)^(٢).

وترد سائر بمعنى الجميع يقال: حضر الحُفْلُ سائر أفراد الأسرة، أما سيّر: فمصدر سار يقال: حُسْنُ السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ: مراعاة التقاليد واحترام القوانين، كما ورد في استعمالات العرب قانون السير بمعنى: قواعد المرور. وسيّر مفرد ويجمع على سيور وأسيار: خيط من جلد ونحوه. يقال: اربط سير جذائك، سير متحرك: أداة متحركة لنقل الحقائق في المطارات ونحوها. سيرة مفردة، جمعها سيّر: طريقة، سنة، سلوك يقال: كان ذا سيرة حسنة وبمعنى الحالة التي يكون عليها الشخص أو الشيء. قال تعالى "سنعيدها سيرتها الأولى" وسيرة الشخص تعني: تاريخ حياته ومنه قولهم: على طالب الوظيفة أن يكتب في الطلب سيرته. السيرة النبوية: تاريخ حياة الرسول وغزواته وغير ذلك... سيرة ابن هشام: من أوثق المصادر المعتمدة في سيرة الرسول (ص).^(٣)

والسيرة في اصطلاح الأدباء هي التاريخ الخاص بحياة فرد من الأفراد في الغالب وتنوع إلى ثلاثة أنواع في خطتها:

النوع الأول: عرض الكاتب المؤرخ لسيرة أخيه أو صديقه أو أبيه عرضاً ينتقى الوقائع والمآثر ويرتبها ويشرحها شرحاً أدبياً، ويحكم على صاحب السيرة، وتبرز السيرة في هذا النوع مقارنة الجوانب متسقة الأنغام. وفي مثل هذا النوع من السيرة يكون الكاتب حراً في نقد المكتوب عنه والأخذ منه ومع ذلك لا يخلو من الغلو في المدح أو الثلم لتأثره بذاتيته وأمثلة ذلك نوع: حياة محمد لهيكل، وحديث الأربعاء لطله حسين وغيرهما من السير الذاتية.

النوع الثاني: سلوك الكاتب سلوكاً غير مباشر ويختفي وراء الموضوع ويشير به على نفسه بنفسه. ثم يقدم إليها آراء الشخص الآخر واتجاهه. ثم يعرض في ثنايا كلامه أحبائه وشيوخه ونبذة من إنجازاته النثرية والشعرية.

النوع الثالث: من الطرق التي يسلكها كتاب السيرة عرض المؤرخ سيرته الذاتية بنفسه ولو بإشارة، كالذي فعله أحمد أمين في كتابه الموسوم بـ "حياتي"، والنوع الأخير هذا نافع ومفيد لما فيه من سرد الحقائق والوقائع حسب رؤى صاحبها وصدق العواطف في إبراز سياقاتها الموقفية المختلفة، وهذا النوع من السيرة مع نوعها في تحليل الحوادث لا تصفو من عيوب، خاصة إذا أضمر المؤرخ بعض خفاياه وتصنع فيما أورده وبالغ في سردها مبالغاً مقلوبة، والسيرة تتحلى بالوضوح والجمال وترتيب الأحداث، وكثيراً ما تنهج السيرة نهج القصة في سهولة ألفاظها ورونق أسلوبها، وجمال معانيها.

السيرة الذاتية في التراث العربي القديم

أهميتها

لدراسة السيرة الذاتية أهمية كبيرة لدى كل كاتب وأديب، وتنجلي تلك الأهمية في إبراز أهداف عديدة منها التأسي بكاتب معين من ناحية أسلوبه والسير على منهج حياته التعليمية والتعليمية، وهذه تتحقق من خلال التعرف على شخصية الكاتب، وأعماله، وأقواله، وتوقعاته، وتقريراته، وإسهاماته في تسير عجلة المعرفة وترسيخها في عقول الناشئين. وتعتبر السيرة الذاتية ثروات علمية يتسلح بها كل من عرف للعلم قيمته وبنى على المعارف قامته.

نعم يستفيد القارئ من أية سيرة ذاتية باستشعاره لمجهودات السابقين بغية تسيير عجلة المعرفة وتقديمها إلى الأمام.

وأن القارئ لسيرة ذاتية لأي كاتب يقف على طرق عديدة للتغلب على محن وعقبات مر بها ذلك الكاتب أو الشاعر، كما يهتدي لوسائل وأدوات يتوسل بها القارئ في تغلب على مشكلة من مشاكل الحياة. علمية أو معيشية، ويسير على ضوء مفاد سيرة ذاتية معينة ويتشكل شأنه خلال سيره وتمثله لنتاج سيرة ذاتية محددة.

والسيرة الذاتية موعلة كل الإيغال في التراث العربي قديما وحديثا وهي من الأجناس الأدبية تشبه القصة في خصائصها وملاحمها وعكسها لحياة فرد من أفراد المجتمع. وقد عرف هذا النوع في الأدب العربي قديما وذلك على سبيل المثال: سيرة ابن هشام التي صورت لنا أخلاق الرسول (ص) مع آله، ومع صحابته، ومع اليهود، خاصة عندما هاجر إلى المدينة، ومعاملته ومع رعيته عامة ومع الأعداء خاصة.

خصائصها

ولفن السيرة الذاتية خصائص وذلك باعتبارها فنا من فنون الأدب العالي وجنسا من أجناس الأدب العربي قديما وحديثا وقد تبوأ مكانا معتبرا وذلك لما اعتمدت عليها من خصائص منها^(٤):

١- تضمنها للحبكة القصصية.

٢- اعتمادها على مصادر التهيج والإماله والتشويق والانفعال الجياش والعاطفة المتدفقة.

٣- بغيتها لشخصيات مثالية وهيمنتها بذلك على العقل والقلب معا كما أنها تؤدي بالقارئ إلى الاقتداء بمسيرتها والسير على نهجها.

٤- وجدان الأدب في السيرة الذاتية حيزا خصبا وخيالا غائرا وتصويرا رائعا بديعا بما تضمنتها من البطولات والمعاملات الحربية المثيرة.

٥- اشتغال السيرة على القيم الأخلاقية استفادة^(٥).

وتلك القيم الأخلاقية متسقة ناتجة من مواقف ومشاهد متحركة تضيف الحركة والنشاط والأريحية والألوان عليها. السيرة التي هي كتابة وتسجيل تاريخ شخصية من الشخصيات المشهورة على درجة الفن تنوى تلك السيرة توضيح ملامح النبوغ التي تميز بها صاحب السيرة، ومواضع النقص كذلك. فمسجل للسيرة الفنية بهذا النمط يصاحب السيرة بالتحليل والتعليل بغية بهذين العاملين إبراز جوانب الشخصية المترجم لها، وتجلية جميع أبعادها وكشف السياقات المحيطة بها للوقوف على خفاياها ومكوناتها. أنواعها

للسيرة الذاتية أنواع منها:

١- سيرة ذاتية

السيرة هي التي تهتم فيها الكاتب بعرض حياته بنفسه.

وتنقسم السيرة الذاتية لدى أدباء العرب إلى قسمين:

أولاً- السيرة الذاتية التي تعتمد على حياة صاحب السيرة الواقعية فتقوم بتاريخ مراحل حياة صاحبها مع الوقائع التي واجهها الكاتب، ورصد شيوخه الذين أخذ الكاتب منهم العلوم، وتأثر بهم، وكما يسجل الكاتب الطريق التي ينتمى إليها مع عرض لروافده الكفرية والعقلية. ينتمى الأديب إليها.

ثانياً: السيرة الذاتية التي تتناول الجانب الفني من حياة كاتب السيرة. وفي هذا النوع من السيرة يتناول رحلة الكاتب الفنية وتطور قدراته الأدبية^(٦).

٢- سيرة غيرية

فسيرة غير ذاتية (غيرية) هي التي يسجل فيها الأديب حياة غيره ولهذا النوع من السيرة رجالها وعشاق الكتابة فيها أمثال الكاتب القدير الأسواني المصري عباس محمود العقاد حيث إنه قام على قدم وساق وكتب لنا عبقریات الصحابة بدأ بعرض حياة الرسول (ص) وامتدادا بعرض حياة عدد كثير من الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين، ولم يقتصر على

الصحابة فحسب، بل مدّ جناح كتابته للسيرة الغيرية إلى شعراء العرب والغرب كبشينة وابن الرومي وأبي نواس وعمر بن أبي ربيعة. وسلك في ذلك مسلكا متميزا، انفرد به عمن سواه من أدباء عصره. وكما تناول أدباء العرب، كتب كذلك سيرة غيرية عن أدباء الغرب أمثال شكسبير ومحمد علي جناح وغاندي.

تطور السيرة الذاتية في التراث العربي الحديث:

- ١- أثر الكتاب القدماء بتراجمهم المختلفة في تنمية فن السيرة الذاتية لدى الجيل الأول من العرب، وهذا التأثير يتجلى في تأسي كتاب السيرة الذاتية بمنهج السابقين. فاتجه بعضهم بعرض سيرة حياته منذ نعومة أظفاره إلى بلوغه، وبعد إجادته لفن الكتابة إلى وقت قيامه بعرض سيرته الذاتية، ومن أعلام هذا الصنف الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد عياد الطنطاوي وغيرهما، ومنهم من اتجه اتجاها عربيا محضا، وغيرهم سلكوا مسلك الغربيين أمثال الشدياق، وعلى مبارك مع حفاظهم الشديد على أصالتهم العربية.
- ٢- السيرة الذاتية في الطور الثاني، قد تطورت من المحاولة الفردية الأولية إلى الفن العلمي وتميزت بخصائص منها: انتقلت من المحاولة إلى الفنية وتميزت السيرة الذاتية بخصائص تالية:

- ١- ما يختص بأساليب التعبير وطبيعة البناء ويتنوع إلى نوعين:
 - أ- الأسلوب التحليلي التفسيري. ب- الأسلوب التصويري التفسيري.
 - ٢- الكشف عن الغاية: تصوير حياتهم بنقل الصورة عن جيلهم.
 - ٣- الاهتمام بتصوير مرحلة الطفولة.
 - ٤- التجرد والصدق. بتحرى معظم كتاب السيرة الصراحة والأمانة والصدق والنظرة الموضوعية.
 - ٥- الكشف عن مدى تأثير الوراثة وعوامل البيئة في أساليب كتاب السيرة.
 - ٦- تشخيص الصراعهم مع مجتمعاتهم وتغلبهم عليه.^(٧)

السيرة الذاتية في الأدب العربي في نيجيريا:

السيرة كما سبق الحديث عنها جنس من أجناس الأدب بنوعيتها: الذاتي والغيري، وكتاب الأدب العربي النيجيري لم يقتصر على غيرهم من أدباء العالم عامة في تقديم إنتاجهم الأدبية في هذا النوع من الأدب (السيرة: الذاتية والغيرية). بل أسهموا إسهامات ملحوظة. وقد انقسم المؤلفات لها قيمتها العلمية والفنية في تطوير هذا الجنس من الأدب. بينما ركّز الآخر على السيرة الغيرية. وهذا الصنف من السيرة ظفر بنصيب الأسد لدى أدباء نيجيريا، ويظهر ذلك في كثير من مؤلفاتهم.

ويعد العلامة السوداني الشيخ عبد الله بن فودي من أوائل روادها، ويلاحظ كل من قرأ مؤلفه الموسوم بـ: "تزيين الورقات"^(٨)، حيث إن الكاتب أورد في طوايا ذلك التأليف سيرته الذاتية، كما كتب كذلك العلامة الإلوري رحمه الله سيرته الذاتية عتب كتابه الموسوم بـ: لمحات البلور في مشاهير علماء إلورن^(٩).

ومن كتب عن سيرته الذاتية المفتي الثاني لإمارة إلورن. الشيخ خضر صلاح الدين أبو كاغي رحمه الله عليه. ونقطة الائتلاف لهذين الشيخين الصديقين الأخيرين في الذكر - هي أنهما ائتلافا في كتاب السيرة بنوعيتها: الذاتية والغيرية. فالأول كتب سيرته الذاتية كما كتب سيرة الغيرية وواصل تلك المحاولة علماء غير قليلين من الذين أتوا من بعضهم أمثال صاحبي السيرتين الذاتيتين محمد البوصير سلمان أكي ومحمد أول أبوبكر. والصفحات التالية عبارة عن أمثلة للسيرة الذاتية لبعض كتاب نيجيريا.

كتب الإلوري عن نفسه فقال^(١٠):

"لا أريد أن أكتب عن نفسي ما يعرفه الناس بل تركت لهم مجالا ليكتبوا مدحا أو ذما صدقا أو غيره والحمد لله على ذلك كله، والفاضل من تعد سقطاته".

وانما أريد أن أكتب ما لا يعرفه الكثير عني لتمام المعرفة واليقين والوضوح. فإني آدم بن عبد الله الباقي بن حبيب الله بن عبد الله،

أخبرني والدي أن جدي حبيب الله نزل إلى إلورن من أويولي بصحبة (آتبا) لأنه من حاشية الأفن ممن يسمون أصحاب السرج، نزل جدي أولا في دار إمام أيدابي ثم تحول إلى أومده مع القائد أولومدي وبنيا مسجد أومدا؛ فكان أول إمام فيه، وذلك حوالي سنة ١٨٧٠م، وكان جدي يعلم الصبيان القرآن الكريم وعليه تخرج كبار أهل الناحية قبل تقدمه في السن.

ولما كبر في العمر جعل الإمام كورنغ نائبا له لأنه هو أيضا مهاجر من أسين إلى إلورن، وأخبرني والدي أنه سماني آدم تبركا بجده من أمه حليلة بنت ألفا آدم (ألانامو) الذي اشتهر بالصلاح والتقوى في عهده، والذي قرأ عليه الشيخ سارومي القرآن ومبادئ العلم قبل انتقاله إلى البوصيري، وكذلك قرأ الشيخ موسى أتيري بربوة ليلي وغيرهم، وأخبرني أن (أبابكر كراه) سمي ابنه آدم تبركا بهذا الشيخ. وكان والدي كثير الترحال، أخذ العلم عن والده وعن أخيه إلياس، ثم خرج غلى الداهومي (بنين حاليا) بلاد برغو ودندي وتلقى بها العلوم، ثم استقر به القرار في بلد (واسا) بالقرب من زوغو عاصمة بلاد دندي وتولى بها إمامة البلد، وتزوج بنت رئيس البلد وهي أمي، وهناك ولدت وترعرعت إلى أن رجعنا إلى إلورن سيرا على الأقدام حوالي سنة ١٩٢٩م، ثم تلذ والدي للشيخ مالك الالهوسا والشيخ هاسمي أيريكيويو بعد رجوعه إلى إلورن.

قام والدي رحمه الله بتربيته، وكان يأخذني إلى كبار العلماء ويسألهم الدعاء لي بالبركة، ومما تذكرت أنه أخذني في الداهومي إلى الشيخ الحسن أكبر تلاميذ عمر صاحب تربيع الزهد فدعا لي بالبركة، وأخذني إلى الحاج محمد وزير بدا ودعا لي كذلك، وهكذا إلى كبار علماء إلورن بذلك الوقت، كما كان يأخذني إلى كل اجتماع ديني وحفلة دينية.

ثم أرسلني إلى الشيخ صالح ابن شيخه للتعليم ولاكمته ثلاث سنين، ثم أشار لي صالح بالاستزادة من أخيه الحاج عمر الأيجي في لاغوس ثم ساقني الله إلى الشيخ آدم نماجي ثم إلى كثير من العرب المتجولين، وكنت أناقش أقراني وأصحابي وأناظرهم في المباحث العلمية لإظهار الحق حتى عرفوني بالجد لي وصاروا يخشون لقائي ومناقشتي في المسائل العلمية والفلسفية.

وقد تحصلت على كثير من الفنون بالمجهود الشخصي وبالمطالعة، ثم استفدت كثيرا من التأليف والتعليم فإنهما صناعتان تحملان على التعمق، وحينذاك صدقت قول رسول الله (ص): "من عمل بما عمل ورثه الله علم ما لم يعلم". (١١)

وكتب محمد البوصيري سيرته الذاتية في كتابه "ذكريات في الأزهر بين الماضي والحاضر". كما كتب كذلك الأستاذ الدكتور محمد الأول أبوبكر سيرته الذاتية في كتابه الموسوم بـ: "مذكرات إمام وخطيب في مناخ جامعي".

أما السيرة الغيرية فقد أفاض أدباء نيجيريا في تناولها وأكثرها منها إكثار المعترفين بقيمتها الفنية. ومن أمثلة ذلك ما كتبه الإلوري في كتاب أخبار القرون عن الشيخ أحمد ابن أبي بكر الفلاني مؤلف الكتاب (١٢):

"ولد الشيخ أحمد في مدينة إلورن حوالي ١٨٧٠م ونشأ وترعرع في حجر والديه محبا للعلم والعلماء أدرك عددا من الطبقة الأولى والثانية من علماء المدينة فانتظم في سلك التعليم ينهل من معينه بذكاء منقطع النظير حتى ارتوى وتبحر وبرع على إقرانه. كان كثير الترحال في بلاد يوربا يأخذ العلم ممن فوقه ويعطى من ساواه وكان مثقفا واسع المعرفة ملما باللغة الانكليزية التي تعلمها في رحلاته ما بين لُوكُوجَا ثغرينجريا القديمة وبين لاغوس العاصمة قبل وفاته ١٩٣٦م توظف لدى الحكومة الانكليزية في مدينة إلورن امينا للمالية كاتبا للضرائب ردحا من الزمان ثم ترك الوظيفة وانقطع للتعليم والإرشاد والتأليف وقرض الشعر له عدة مؤلفات لم نعر على بعضها وله من القصائد ما قد ضاع أكثرها عندنا في مدينة إلورن وقد عثرنا على بعضها في البلاد التي وجهها إليها ولازلنا نتابع البحث ورجاونا أن نعر على ما شاء الله العثر عليه.

الخاتمة

لقد لاقت السيرة بشقيها: الذاتية والغيرية قبولا لدى أدباء العرب والمستعربين، وهذا منطق هذا المقال من ألفه إلى ياءه، وقد أبرز من خلال ثناياه ما لهذا الفن من مكانة وقامة في عالم المعارف الإنسانية. وقد عالج تلك المهمة بغية تسليط الأضواء العلمية على أولية السيرة الذاتية في التراث العربي قديما وحديثا، ثم التطور الذي لحقه في الحقل المعرفي، والرواج الذي ناله في واقع العلماء والأدباء وأعلام السيرة. وهذا المقال احتوى على هذه الثوابت التاريخية والحقائق المعرفية من خلال صفحاته المحدودة المحددة. كما ضمن في ثناياه ما لفن السيرة من أهمية ومكانة في عالم دراسة النص الأدبي الأسلوبي. وفي الختام نحض الإخوة القراء الأعزاء كما نحثهم على القيام عن ساعد الجد لزيادة إلقاء الأضواء على هذا الفن العميق غوره. والله من وراء القصد.

الهوامش والمراجع

١- الأستاذ أحمد العايد وآخرون، المعجم العربي الأساسي، لاروس، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٦٥٨-٦٥٩

٦٥٩

٢- الأستاذ أحمد العايد وآخرون، المرجع نفسه، ص ٦٥٨-٦٥٩

٣- الأستاذ أحمد العايد وآخرون، المرجع ذاته، الصفحة نفسها.

٤- علي علي صبح وآخرون، الأدب الإسلامي المفهوم والقضية، دار الجيل بيروت، ص ٤٤-٤٥

٥- علي علي صبح وآخرون، المرجع نفسه، ص ٤٤-٤٥

٦- علي علي صبح وآخرون، المرجع نفسه، ص ٤٤-٤٥

٧- علي علي صبح وآخرون، المرجع نفسه، ص ٤٤-٤٥

٨- عبد الله بن محمد المعروف بابن فودي، تزيين الورقات، ١٣٨٣هـ، صكتو.

٩- آدم عبد الله الإلوري، لمحات البلور في مشاهير علماء إلورن، مكتبة الآداب ومطبعها بالجماهير، القاهرة، ص ٧٧-٧٨

ص ٧٧-٧٨

١٠- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ٧٧-٧٨

١١- آدم عبد الله الإلوري، المرجع نفسه، ص ٧٧-٧٨

١٢- الشيخ أحمد بن أبي بكر الفلاني الإلوري، أخبار القرون من أمراء بلد إلورن، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص ٧-١٠

ص ٧-١٠

الثقافة الإسلامية في مدينة إلورن: مراجعة تاريخية

د. محمد جمعة دسوقي ١٥٨

الشيخ محمد كمال الدين حبيب الله الأدبي وعلاقاته العلمية مع الأزهر.

د. محمد كامل أحمد ١٨٠

القضايا السياسية والأسلوب الرمزي في قصيدة "المركب الوعد" لعيسى أبي أبوبكر: دراسة

نقدية

د. أحمد عبد الله مي صلاتي ١٩٠

السيرة الذاتية في تراث العرب والمستعربين: دراسة تاريخية

د. موسى حسين محمد البشير (أريكْيُوسُولَا) ٢٠٣

الترقيم الدولي ١٥٩٦-٣٩٣٤

المجلد الثالث، العدد الثالث عشر، ٢٠٢٣ م



مجلة اللسان

عربية محكمة تصدر سنويا عن

الجمعية الأكاديمية للغة العربية
وأدائها في نيجيريا (أسكن)